International Journal for Scientific Research (IJSR)

المجلة الدولية للبحوث العلمية

Vol. (2), No. (10) October 2023 الإصدار (2)، العدد (10)

مراتب التأويل في إرث الفكر البلاغي

موزة الكعبي

أستاذ مساعد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة

mozah.alkaabi@mbzuh.ac.ae

الملخص

هذه الدراسة تبين الفكر التأويلي عند أرباب البلاغة خاصة عند شراح التلخيص متخذة من وقفاتهم التأويلية للزمن في النصوص القرآنية على وجه خاص والسياقات اللغوية بشكل عام عن مقتضى الحال كالتعبير عن المستقبل بالماضوية والعكس. كما تجسد الدراسة وثيقة تأويلية بلاغية مكثفة بامتياز متخذة من عروس الأفراح والمطول والأطول لشرح تلخيص الخطيب القزويني أنموذجا في باب الإسناد والتقييد بالشرط، لتجسد نموذجا للفكر البلاغي نحو التراكيب اللغوية وأزمانها واستمطار معانيها.

- تُزيح هذه الدراسة الستار عن نفائس هذه الشروح التي حُصر وصفها بأنها فلسفية فقط دون إشارة إلى الفتوح الأدبية التي تحتاج إلى من يجليها ويبين سبقها وقربها من الدراسات الأدبية، كما أنَّ "للمقاربة التداولية للزمن موقعًا بارزًا ضمن خريطة المنظورات التحليلية في خريطة البحث اللساني المعاصر"[1].

- في هذه الدراسة إثبات ورد على ما شاع بين المختصين بدراسة الألسنية في الغرب من أن اللغات السامية ومنها العربية ناقصة الدلالة على الزمن بأفعالها، فالعربية ليس فيها إلا فعلين منجز أو غير منجز،-من جهة نظرهم-، فهي لا تهتم بصيغ الأفعال الثلاثة وفروعها بقدر ما تهتم بالحدث المنتهي والحدث الذي لم ينتهِ[2] فهذه الدراسة وإن لم تكن مختصة بالأفعال الزمنية إلا أن حديثها عن الزمن بأشكال متعددة ليثبت ويدعم، بأن اللغة التي استطاعت أن تجسد الوقت بألفاظ كالضحى والشروق والفجر والبكور والغدو رغم صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات في كثير من اللغات الأخرى إلا بالجمل والتراكيب، فليس من الطبيعي أن يبلغ إحساس القوم بالزمن ثم يخلو كلامهم من الدلالة على الإحساس في مواضع مختلفة.

(1) الملاخ، امحمد، الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية، المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،2009م، ط: 1، ص: 67.
(2) عبد الجبار توأمة، زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه و وجهاته، دراسات في النحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م ط: ب، ت، ص: 76، 77.

كما تحاول إبراز الطريقة المتبعة في التأويل المبني على الافتراض ونقضه، أو البدء بالنتيجة إلى المقدمة أو العكس وذلك لما تميز به أرباب شراح التلخيص من المنطق المنظم والفكر الفلسفي الذي طالما حمّلهم نظرائهم – أصحاب المدرسة البلاغية الأدبية - جمود البلاغة وتخلفها.

الكلمات المفتاحية: الفكر البلاغي، اللغة العربية، التأويل، دراسات لغوية.

Interpretation Levels in the Heritage of Rhetorical Thought

Mozah AlKaabi
Assistant Professor, College of Arts and Humanities, Mohammed bin Zayed University of Humanities, Abu Dhabi, The United Arab Emirates
mozah.alkaabi@mbzuh.ac.ae

Abstract

This study aims to show the interpretive thought of the masters of rhetoric, especially when explaining the summary, based on their interpretive pauses for time in Qur'anic texts in particular and linguistic contexts in general regarding the adverbial situation such as expressing the future in the past and vice versa. The study also embodies a condensed rhetorical interpretive document par excellence, taken from The Bride of Weddings and Al-Mutawil and Al-Awal to explain Al-Khatib Al-Qazwini's summary as a model in the chapter on attribution and restriction by condition, to embody a model of rhetorical thought towards linguistic structures, their timing, and the elaboration of their meanings. It also attempts to highlight the method used in interpretation based on an assumption and its rebuttal or starting from the conclusion to the premise or vice versa, due to what distinguished the masters of the commentators of summary in terms of organized logic and philosophical thought, for which their counterparts - the owners of the literary rhetorical school - have always held them accountable for the stagnation and backwardness of rhetoric.

In this study, there is proof and response to what is common among specialists in the study of linguistics in the West, that the Semitic languages, including Arabic, lack the indication of time with their verbs. Arabic has only two verbs, either completed or unfinished - from their point of view - as it does not care about the forms of the three verbs and their branches. This study, even if it is not specialized in temporal actions, nevertheless talks about time in multiple forms to prove and support that the language was able to embody time with words such as forenoon, sunrise, dawn, early morning, and morning, despite the difficulty in distinguishing between these times in many cases. In other languages, except with sentences and structures, it is not natural for a people to reach a sense of time and then have their words devoid of indication of the feeling in various places.

Keywords: Rhetorical Thought, Arabic Language, Interpretation, Linguistic Studies.

مشكلة الدراسة:

ستحاول هذه الدراسة الإجابة على عدد من التساؤلات ومنها:

- ماهي صور التأويل عند البلاغين؟
- وهل هي منطقية محضة أم أن الكلام الأدبي طغى على التأويل؟
- هل يمكن أن يكون التأويل البلاغي مميزاً عن التأويل اليوناني للنصوص؟
- هل أتى التأويل البلاغي متكلفاً مغلقاً لأبواب الذوق الأدبي؟
- هل سلك التأويل البلاغي طريقاً واحداً في السياق؟
- كيف تتبع الفكر التأويلي السياقات النصية ذات الدلالات الزمنية وفق نظامها اللغوي وأثر ذلك في تأويل وإنتاج المعنى؟
- هل تأويل الزمن لدى الفكر التأويلي البلاغي مسار مميز وخاص؟

حدود الدراسة:

الحد الأول من حيث النص:

تتناول الدراسة مسار التأويل في نصوص البلاغين على وجه من التحديد لدى أبرز شراح التلخيص للخطيب القزويني باعتباره القطب الذي تدور عليه كتب البلاغة وتأتي أهميته من أهمية كتاب التلخيص للخطيب القزويني في البلاغة الذي عُدَّ الشمس التي تدور عليها كواكب البلاغة، ومنها تأتي أهمية الشروح التي دارت حوله[1]، ومن أهمها: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني، والأطول في شرح تلخيص المفتاح، لعصام الدين الاسفرائييني، فالسبكي عُدَّ من قبل بعض أهل الاختصاص أفصل من القزويني ذاته، في حين اعتبر مطول السعد من خيرة الكتب التي تمثل الاتجاه الكلامي في التأليف البلاغي[2]، كما أن العصام وإن كان أقل منهما جودة غير أن مناكفتاه للسعد رفعت من قيمة الشرح[3].

الحد الثاني من حيث الموضوع:

ولأن التأويل سمة لشراح التلخيص فقد تم اختيار نصوصهم التأويلية الدائرة حول الزمن من حيث وحداته الثلاث (ماضية-مضارعة –أمر) التي نص عليها النحاة العرب القدامى [4] غير أن التعبير عن الزمن يتخذ صوراً مختلفة في الأداء، وهو في الغالب عن طريق الوحدات المعجميّة الدالّة، أو من خلال تصريف الأفعال، أو من خلال ما توحي به التراكيب، ويستفاد من السياقات أو الأساليب المتّبعة في الكلام، ولذا ستشمل الدراسة على كل ما يتعلق بسياقات الزمن من ضمائم وقرائن تساعد في تحديد زمنية المراد، ومنها ما يتعلق بزمن تواجد.

لم يخصص المُنجز البلاغي القديم فصولًا للزمن، غير أنَّ محاريثه طالته، وتربته زُرعت فيها أطيب النُكات التي تستحق الوقوف والتأويل، وتنطلق هذه الدراسة متخذة من بعض نصوص شروح التلخيص كعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، والمطول لسعد الدين التفتازاني والأطول لعصام الدين الإسفرائيني، في أحوال المسند و المسند إليه، وليشمل ما ذكره السبكي والسعد والعصام عن الزمن وفق الحد المذكور ضمن مواطن أحوال المسند إليه والمسند ولا ينفي هذا التحديد خلو هذه الشروح من الحديث

(1) مطلوب، أحمد، القزويني وشروح التلخيص، مكتبة النهضة، بغداد، العراق، 1986م، ط: 2، ص: 524
(2) مطلوب، أحمد، القزويني وشروح التلخيص، ص: 569، 503
(3) مطلوب، أحمد، القزويني وشروح التلخيص، ، ص: 600، المراغي، أحمد مصطفى، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة مكتبة مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر، 1950م، ط1، ص: 179
(4) سيبويه، أبو البشر عثمان بن قنبر، الكتاب ، أبو البشر عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، عالم الكتاب، 1950م، ط:1، ص: 1/ 12

عن الزمن و سياقاته وجهاته في بقية شروحهم ففي المجاز المرسل وبعض فصول البديع وفرة كما سأشير في دراسات مشابهه.

منهج الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الموضوعي الوصفي، حيث ركزت على موضوع الزمن، فهو يمثل لديهم سياقات نصية ذات قوالب ذهنية لها وظائف معرفية وأبعاد معنوية، تنتج عنها كثافة بلاغية تتماشى بخط متوازٍ مع النظم النحوية للغة التي تحملها جنبا إلى جنب ولم تخالفها إلا في تأويلات لها استناداتها المعرفية.

تحوي هذه الدراسة على ثلاثة محاور أساسية تشكلت عبر النظر إلى وجهة الزمن وحجم امتلائه بالحركة من عدمها، لتتشكل الدراسة في ثلاثة محاور:

أولاً: التأويل عبر الافتراض الرأي ومناقشته.

ثانياً: التأويل عبر التعليل المباشر ورده.

ثالثاً: التأويل للترجيح واتساع وجهة النظر وتعدد اتجاهاتها.

أولاً: التأويل عبر الافتراض الرأي ومناقشته:

سلك البلاغيون منهجاً تسلح بالذوق اللغوي الأدبي الذي يستعصي على افتقد أدوات التفكير العقلي فطرحهم للرأي والسعي للتأول فيه لإثبات الحجة والمذهب المختار لديهم لم يكن بالظاهر البسيط ولا بالمعقد النفيس لمن أمعن النظر وتدبر السياق وبط الكلام ففي مسألة المسند الفعلي ومزيته على غيره من اختصار ومعنى مكثف نراهم يقرون بذلك بطريقة استنباطيه مستدرجة ،فقد أدرك فكر البلاغيين أن لزمن الحدث في صنعتهم دوالَّ زمنية ذات مغازٍ بعيدة، بل كان من المسلمات لديهم فتحدثوا عن مزية المسند الفعلي عن غيره لما فيه من اختزال وانكماش للحدث والزمن، دون أن يحتاج إلى ضميمة أو قرينة تبين ذلك؛ مما يجعله أقرب إلى الاختصار، الذي هو آنس للبلاغة وأكثر سكنًا لها.

قال السبكي: (يكون المسند فعلاً لدلاته على أحد الأزمنة مع الاختصار؛ لأن قولك: "زيد قائم" يدل على وقوع قيامه في الماضي مع الاختصار، فإنه يغني عن قولك: "قائم في الماضي" والفعل حيث وقع دل على التقييد بأحد الأزمنة الثلاثة، إما معنيًا مثل: "قام" حيث لم يقع صلة، أو صفة لنكرة عامة، أو في شرط ومثل: "سيقوم" وإما مبهما بين أمرين مثل المضارع إذا قلنا: إنه محتمل للحال والاستقبال، والماضي إذا وقع صفة أو صلة لنكرة عامة فإنه يحتمل المضي والاستقبال والحال....خلافا لقول ابن مالك: "يحتمل

المضي والاستقبال فإنها عبارة قاصرة لعدم ذكر الحال، ودلالة الفعل على الزمان بالتضمن بخلاف دلالة "قائم" على الحال؛ فإنها ليست بالتضمن بل الالتزام والتحقيق أن الفعل الواقع صلة سلب الدلالة على تعين الزمان وصار صالحا للأزمنة الثلاثة مضارعا كان أم ماضيا) [1].

فالتأويل للزمن عندهم دقيق لارتباطه بالسياق الفعلي للنص، فالفعل المضارع "ينجح" في قولنا: "محمد الذي ينجح رأيته" ليس حِجْرا على الاستقبال بقدر ما هو تحديد لصفة محمد المعنِي، ولم يكتفِ تأويل البلاغيين عند حدود هذا بل كانوا مدركين أن الزمن الواحد ينتج عن تمثلات ذهنية متعددة ينتقي منها المتكلم ما يناسب السياق الحالي، فالتمثل الذهني المعرفي صيرورة مركبة تعتمد على خلق وتعديل وتجميع لتمثلُات ذهنية لتأويل الملفوظ: ومن تلك الصيرورة المركبة أن الفعل إذا جاء واصفًا للحال فهو لا يعني المضي بمعناه الحرفي ولا الاستقبال بمعناه المتقدم الدقيق، بل نراه كما يقول السعد صاحي المطول في شرح تلخيص المفتاح: أنه يعني (أجزاء من أواخر الماضي وأوائل المستقبل متعاقبة من غير مهلة وتراخٍ، كما في "زيد يصلي" والحال أن بعض صلاته ماضٍ وبعضها باقٍ فجعلوا الصلاة الواقعة في الأنات الكثيرة المتعاقبة واقعة في الحال)[2]، وفي قولهم: "أجزاء من الماضي والمستقبل" نجد حِسًّا زمنيا رمادياً متداخلًا عند البلاغيين دون القطع بانتمائه إلى أي وقت.

وتنبه تأويل البلاغيين إلى دقيقة وهي أن ارتباط الفعل بقرينه كما في الفعل المضارع لا ينافي سمة الاختزال والانكماش في الفعل، فالعصام صاحب كتاب الأطول في شرح تلخيص المفتاح يقرر أن هذا زيادة في المعنى بطريقة التدرج لتعين أمر ما بطريقة أكثر اختصارًا من التعبير بالمسند الاسمي عبر افتراض سلسلة حوارية يرد عليها، يقول العصام: (فإن قلتَ: لا يرجِّح ذلك الفعل المضارع على الاسم؛ لأنَّ تقييده بأحد الأزمنة يتوقف على القرينة لاشتراكه، قلتُ: يحصل التقييد بدون القرينة بأَحد الأزمنة بمقتضى الوضع لا محالةَ، وإنَّما يُحتاج إلى القرينة لتعيين المراد.

فإن قلتَ: فما الفائدة في الإيراد فعلاً ولا مندوحةَ عن القرينة إلا أنَّ القرينة هنا لتعيين المراد، وفي الاسم للتقييد؟ قلتُ: فائدته التدرُّج في التعيين، وذلك موجبٌ لمزيد التقرُّر)

(1) السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ج:1، ط: 1، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية،1423ه-2002م، ص: 1/ 413.
(2) التفتازاني، سعد الدين بن مسعود بن عمر، المطول شرح تلخيص المفتاح، صححه وعلق عليه: أحمد عزو عناية، ط: 1، بيروت- لبنان، دار إحياء التراث، 1425هـ، ص: 300.

ولم يكتف حسه التأويلي بما ذكر، بل زاد بالتأويل بأن قرر بأن ما أوله لا يتعارض مع القرينة العقلية فاتبع قائلا: (بَقِي أنه لا تظهر منافاةُ التقييد بالقرينة العقلية التقييدَ على أخصر وجهٍ؛ إذ القرينة العقلية لم تُعَدَّ مِن موجبات الإطناب، وكيف لا؟ وإيجازُ الحذف لا يُعقل بدون القرينة!)[1].

ثانيا: التأويل عبر التعليل المباشر ورده:

إن التأويل البلاغي الذي حفزته الأدوات المنطقية المتوجة بفهم اللغة والمنطق لم يكن ينتزر الرد والحوار فحسب، بل كان ينطلق على الى الرأي بالعلة، فالأزمنة تتنافس فيما بينها لتمثيل حدث في سياق تواصلي محدد، لذلك فإنه ينبغي اختيار الزمن الذي ينتج تمثيلاً ذهنياً متوافقا مع الأثر الدلالي الذي يتوخاه المتكلم، فاختيار المستقبل يعد الاختيار الأكثر حياداً من المتكلم؛ لأنه لا يستوجب منه التزاما بيقين الحدث، أما اختيار الماضي فينتج أثراً ذاتياً على درجة اليقين [2].

وكان لتأويل البلاغيين وقفات جميلة اختلط فيه النظام المعرفي بالدلالة وبالبنية العميقة للسياق، فالتلاعب بالأنسقة الزمنية للنص مما اعتاد عليه النظام العرفاني؛ ليقينه بدلالات عميقة يخرجها مأول عميق الفهم فهي لا تأتي عبر التعبير بالنسق النمطي المفروض ضمن الأنظمة اللغوية.

ومن الأساليب التي كان لحس تأويلهم للزمن وقفات ما يطالعنا في التعبير بالمضارع لفعل شرط بـ"لو" والأصل في شرطيتها أن يكون فعلها ماضٍ؛ لنكتة بلاغيه مفادها أحيانا: إبراز الحاصل في صورة غير الحاصل فتأخير لعقارب الساعة الزمنية له مغازٍ عدة.

فأداة الشرط "لو" تدخل على الفعل الماضي، فهي أداة للقطع بانتفاء الشرط، وقد تدخل على الفعل المضارع؛ لنكتة بلاغية حسب مقتضى السياق، مثل تنزيل الشرط منزلة الماضي لصدور هذا الشرط عمن لا يخلف ولا يُكذَّب في إخباره[3]، مثل قوله تعالى: (**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ الأنعام: ٢٧، وقد تناول البلاغيون رأي الخطيب بين تأويل وتفسير واختلاف واقتراب في مقياس خروج سياق" لو" عن المضي إلى المضارع وحقها الماضوية.

فأول السعد أن الغرض من التعبير بالمستقبل بدل الماضي في "ترى" بمنزلة الماضي المتحقق الواقع هو استحضار لأمر مستقبلي لم يحدث وإنزاله منزلة الآني؛ لأن هذا الأمر في يوم القيامة فهو مستقبل في

(1) الاسفرائيني، عصام الدين إبراهيم بن محمد، الأطول على تلخيص المفتاح، دراسة وتحقيق: عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، ج: 1ص: 449
(2)الملاخ، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبة والدلالية، ص: 481 وما بعدها
(3) ينظر، القزويني، محمد بن عبد الرحمن، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، ط:1، دار الفكر العربي، 1904هـ-، ص: 117،118.

التحقيق ماضٍ بحسب التأويل، كما أنه قيل قد انقضى هذا الأمر لكنك ما رأيته لو رأيته لرأيت أمراً عجيباً هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام [1].

إلا أن التأويل الزمني عند العصام اختلف، فهو يرى أن استباق الزمن لتأويل الماضي مرفوض؛ لربطه بالسارد الإلهي -سبحانه- لكون من صدر مِنه القول لا يكذِّب، ففند ما ذهب إليه صاحب المطول فأمر العصام بأن لا يُلتفت إلى ما باهى به السعد في تحقيقه الذي أشرنا إليه سابقاً، قال العصام: (ولا تلتفتْ إلى ما باهى به الشارحُ المحققُ، حيث قال: فهذا مستقبل في التحقيق ماض بحسب التأويل ؛كأنه قد قيل: قد انقضى هذا الأمر، ولكنك ما رأيته ولو رأيته لرأيتَ أمراً عظيماً) [2]، ويقول: إنه جعل الأمر غير المتحقق متحققاً لصدوره عمَّن لا خلاف في إخباره، ويرى أنه لا يَلزم مِن كون ما فُرِضَ رؤيتُهُ كالمتحقق كون الرؤية كذلك، ويختم ناهياً عن الاستسلام للتقليد الذي لا يقوم عليه دليل[3]، يقول العصام: (تأمَّلْ، ولا تذهلْ وبالتقليد عن التحقيق لا تغفل)، فعقربه الزمني يختلف عنه؛ لأن هناك فرقًا بين إخبار الصادق الذي لا يُكذب وبين افتراضه، والآية من باب افتراضه، فمؤشر الزمن عند العصام في سر دخول "لو" على المضارع يرفض أن تكون الآية من (إخبار الصادق يدل على تحققه لا محالةَ، بل هي قد تكون من فَرْضُ المخبِر الصادق الذي لا يدل على تحققه).

وفي عبارته (تأمل...) دعوة إلى جديد التأويل بالنظر إلى أطرف الخطاب من متلق وملقٍ ونص.

ويكمل العصام حديثه: (ويمكن التقصّي عنه بأنَّ فَرْضَ الرؤية إنَّما هو بالنسبة إلى المخاطب، وأمَّا أصل الرؤية فأمْرٌ مذكور لا على وجه الفرض فكأنه قيل: تَرَى أهل النار موقوفين على النار وإنْ تر أنت لَترى أمْراً عجيبًا، فدخول "لو" يجعل "ترى" بمنزلة الماضي في تحقق أصل الرؤية الذي يُشعر به قوله: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ**﴾.

ويصل إلى حس زمني آخر ليعتبر أن امتناع عدم وقوف الذين كفروا على النار كون الحديث منسوبًا لمخاطِب لا يُكذَّب ليرتقي حسه الزمني باعتبار المضارع كالماضي المحقق، يقول العصام: (ومِن هذا تمكنتَ من التقصيّ عن بحث آخر يوحَى -أيضاً- إلى المتفطِّن، وهو أنَّ تنزيل المضارع مَنزلة الماضي في التحقق ينافي دخول "لو" الدالة على الامتناع، فلَكَ أن تقول: الامتناعُ باعتبار الإسناد إلى المخاطبِ والتحققُ لأصل الفعل؛ فذِكْرُ "لو" للإشعار بأنَّ الرؤية بمثابةٍ مِن الهول يُظَن معها أنه يمتنع مِن المخاطب، هكذا حَقِّقِ المقام) [4] .

(1) ينظر العصام، المطول شرح تلخيص المفتاح: ج: 485
(2)المرجع نفسه، ج1: 485.
(3)المرجع نفسه، ج1: 485.
(4) ينظر العصام، الأطول على شرح تلخيص المفتاح، ج1/ 485.

ويرتقي تأويله الزمني ليخرج تأويل مجيء الفعل المضارع ليقرر: أن المضارع أتى على مقتضى الظاهر:

(لِلإشعار باستبعاد تحققه؛ كأنه كالممتنع، وهذا الدخول لا ينافي عدم دخول "لو" إلا على الماضي-على ما هو الأصل-؛ لأنَّ ذلك في" لو" المستعملة فيما وُضعت له، لا فيما إذا استُعملتْ بمعنى "إنْ"، فإنَّ العدولَ حينئذٍ ليس في إيراد المضارع بل في إيراد" لو ")[1].

وقاس ذلك التأويل بما ورد في قوله تعالى: (﴿ **رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾،الحجر:2، من التعبير بالمضارع "يود" بدلا من "ودّ"، فـ"رب" لا تدخل إلا على المضارع، وفي دخولها على الماضي نكات بلاغية وعلل نحوية[2].

إلا أنَّ العصام يوحد القياس لذلك التكسير الزمني الذي حصل في تناسب الأزمنة عبر اعتماده للفكرة الأساسية وهي: أن الغرض من التنبؤ بالزمن والتسبيق له من ماض إلى مضارع غرضه إحضار الزمن المستقبلي إلى نسق آني حاضر في نسق نصي حقه المضي[3] لاستحضار الصورة على هيئة حاضرة لمشاهد غيبية تعج بكثير من الصمت، يتعبها تقرير مصيري، غير أن السبكي رفض هذا باعتبار أن نسق "أن" للمشكوك فيه، وهذا ما لا يتناسب مع سياق النص القرآني[4].

ويدق استشعار السبكي للزمن عبر ذكره أنَّ الأنساق النصية والنظمية لـ(لو+ الفعل المضارع) لشيء متوقع زمنه كما في رؤيتك يا محمد لندم الكفار عند وقفتهم على النار متوقعه، قال السبكي ناقلاً عن والده: (قد تتبعت متوقعا فوجدتها إذا دخلت على المضارع كان ممكنا متوقعا أو كالمتوقع، ويكون المقصود إثبات الجواب، مثال المتوقع في هذه الآية[5]، فإن مشيئة الله الانتقام منهم متوقعة إلاَّ أنه عنى زمن الخطاب والمقصود إثبات الانتقام على ذلك التقدير لا على نفي المشيئة، وكذلك قوله: ﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ**﴾ البقرة: 165.

فمن الملاحظ أن نمط العلاقات النصية بين الأزمنة والعلاقات السياقية الملائمة تكون أكثر إذكاء للهيب الحسّ الزمني عند البلاغيين، خاصة في الحالات التي يخالف زمنها النظام التقعيدي للغة، فكان التأويل البلاغي متحينا للآثار الدلالية والذاتية التي يتوقع إحداثها، فأثر استخدام المضارع أدركه حسّ البلاغيين، فالخطاطة الزمنية للآية استعمل فيها المضارع لمقاصد ذات منظور معنوي، فالمؤول الزمني في الآية تم تحويله من المضي إلى الاستقبال دون مراعاة للنمط النصي التقعيدي حيث استعمل في تأويلهم البلاغي

(1)المرجع نفسه، ج1: 485.
(2) المرجع نفسه، ج1: 485-486.
(3) المرجع نفسه، ج1: 485-486.
(4) ينظر السبكي عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ص: 2/452-454.
(5) سورة البقرة 165.

منظور المتكلم كمركز تأويلي للزمن، حيث اعتمد على علة أن الخبر صادر ممن لا يُكذَّب، فمؤشرهم تحسس أثر المضارع الذي يفيد تدرج الحدث وتمطيط الزمن.

فالبلاغيون أدركوا ارتباط الزمن بالقائل وأنه مفتاح لكثير من تأويلاتهم الزمنية، وهنا نتذكر مصطلح "تذويت الزمني" عند دارسي علم الخطاب وعند ربطه بالمتلفظ[1]، ولا شك أن في هذا الشاهد خبايا كثيرة دلت على سعة أفقهم في تفسير الخطاطات الزمنية فرؤية النبي-ﷺ - لوقفة الكفار على النار وتمنيهم العودة إلى الحياة لعمل الصالح فيها أمور غير متحققة في زمن التلفظ بالقول؛ لأنها منتفية في الواقع لتعلقها بأحداث لم تقع بعد [2]، وهذا متكرر لسياقات نصية زمنية قرآنية.

ثالثا: التأويل للترجيح واتساع وجهة النظر وتعدد اتجهاتها:

لم يكن الفكر التأويلي البلاغي محصورا على التفنيد والرد والإقناع، بل كان مسخرا في توسع وجهة النظر لاسيما أن البلاغة ذوقية الثوب جمالية في الهيئة وتعدد التأويل خاصة بما يخدم المعنى بأدوات منطقية لغوية. وكما كان لحسهم البلاغي حضور في قياس الزمن والتأول فيه كان لهذا الحس تغيب وتصفير وتصميت لإرادة معنى آخر سيتجه إليه السياق، وكان لاستشعارهم أهمية ذلك يصنعون حيزًا من الفراغ الزمني، ونرى شيئًا من هذا في حديثهم عن حذف المسند الفعلي، قال السبكي: (لابد لحذف المسند من قرينة تميزه، والقرينة إما سؤال محقق، أي: واقع نحو قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ لقمان: ٢٥، تقديره: "خلقهن الله"، والمعنى: يتحقق السؤال هاهنا تحققه قبل الجواب، لا أنه محقق الوقوع عند نزول الآية؛ لأن فعل الشرط مستقبل المعنى، بل الاقتصار على لفظ الجلالة يستدعي تقدم سؤال استغنى به عن ذكر خلقهن، وتارة يكون سؤالا مقدرا، أي غير منطوق به كقول الحارث بن ضرار النهشلي:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائح) [3].

فالسبكي يرى أن العقرب الزمني المحذوف للمسند الفعلي ليس هو المهم هنا لسبق ذكره في السياق، فلذلك لم يكن تحديد زمن السؤال لسبق تحديده.

ويفصل العصام سبب تغيب الزمن والاستغناء عن بالاسمية فيقول:

هذا والأظهر أنَّ المراد بقوله: **(لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)** لقمان: ٢٥، ما يَعُمُّ قولهَم: "لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ اللهُ"؛ لأنَّ

(1)الملاخ، الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية، ص: 71.
(2) ينظر ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج: 2، ط/ 1، بيروت –لبنان، دار الكتب العلمية، ص: 501.
(3)السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ص: 2/ 406.

المقصود أنهم يجيبون بإثبات الخلق له تعالى، سواء كان ذلك الإثبات مع ذكر الفعل أو مع حذفه، فالآية مثالٌ باعتبار ما يشتمل عليه مِن جوابٍ حُذف فعله، لا باعتبار أنَّ الجواب المستفاد منه لا محالةَ محذوف المسند).

ويؤكد العصام أن غياب الزمن وتنحيته لا يؤثر على نسق النص (فالمسند المحذوف في جواب هذا السؤال في الأكثر فعل...والمشهور في ترجيح تقدير الفعل أنَّ السؤال عن الفاعل، وأنَّ القرينة فعلية) ويناقش رأي السعد في رده هذا الرأي ليدفع رأيه، بأن المطلوب هو الفاعل لا الحدث وزمنه؛ (فيستوي في تعيينه تقديرُ الفعل والجملةِ الفعلية، والقرينةُ لا تَطلب إلا تقدير الفعل دون اسم الفاعل، ولا تَطلبُ تقديرَه عاملاً في المسند إليه المذكور)[1] فالعصام يرجح ما ذهب إليه ويوسع فيها.

فالعصام يبين أن الفعل لو ظهر فسيكون سببًا في رفع المسند إليه (الفاعل النحوي) والمراد من السياق التركيز على الفاعل مع كونه ضميمة متحدة إلى الفعل.

ويفتح العصام باب النقاش من العلة لحذف الفعل فيقول: (بأنَّ السؤال عمَّن صدر عنه الفعل يقتضي تقديرَ المسند عاملاً في المسند إليه لا خبراً؛ لأنَّ الأوَّل يفيد صدور الفعل صريحاً، وأمَّا الخبر فيفيد اتحاد شيء مع المسند إليه، فربما يتضمن هذا لاتحاد صدور الفعل عنه، فالقرينة فعلية داعية إلى جعل الجواب جملة فعلية، نعم يتَّجه أنَّ السؤال جملةٌ اسمية؛ فالسؤال عمَّن يتحد معه المسند لا عمَّن يصدر عنه الفعل، فالقرينة اسمية لا فعلية) [2].

ويبرهن العصام على أن تفريغ الإجابة من المسند الفعلي الزمني له فائدة، لأنَّ حذفه يتوجب أنْ يقدر ولو في الذهن لرد الفعل عمن صدر منه فعل الخلق أمَّا لو ظهر المسند الفعلي ذو الدلالة الزمنية لكان الزمن المؤول للسياق.

فتأويل العصام من غياب الزمن الفعلي مساعد لتحديد ذات الفاعل لا الحدث وزمن الحدث، وهنا تتجلى يقظة حسهم الزمني عند تفريغ السياق من الفعل الدال على الحدث والزمن، وفي ذلك إفساح وانزياح للتركيز على محدد قد يفقد التركيز عليه لو وجِد فتغيب الفعل وزمنه لزيادة التركيز على الفاعل.

ونجد منه جهدًا رائعًا ومن سلفه السعد للتعليل بأنَّ الجملة الاسمية صورة من الجملة الفعلية فالفعل حدد وقت الحدث بدلًا من تعميمه في الاسم، لذلك كان الاستفهام بالفعل (يبين لنا أن المطلب هنا الاسمية وأنّ في الاسمية تمثيلًا عن الفعل، واختصارًا ليستعين برد السيد الشريف على من قال: (إنَّ الجواب بالفعلية متروك لرعاية المطابقة، على أنَّ رعاية المطابقة تُوهِم قَصْدَ التقوية؛ وهو لا يليق

(1) العصام، الأطول على شرح تلخيص المفتاح، ج1: 437.
(2) العصام، الأطول على شرح تلخيص المفتاح، ج1: 437.، وينظر السعد، المطول 292، حاشية السيد على المطول، ص: 292.

بالمقام) [1]، ففي حالة الإجابة بالفعل فسيتكرر الإسناد مما يدل على تقويته.

ويستمر العصام مستخدمًا حسه البلاغي في التأويل في عله حذف المسند الفعلي لوجود قرينة فوجود الفعل زيادة في المعنى لا سيما الدلالة الزمنية من تقوية الحدث وزمنه ومطابقة الجواب للسؤال، إلا أن العصام يدفع هذا محتجا بحدس مقتضى الحال ومؤكدا عدم حاجة السياق النصي لذلك قال: (وربما يُرجَّح تقديرُ الفعل بأنَّ في تقدير الجملة زيادة حذفٍ وتقليلُ الحذف أوْلى.

وردَّه السيد السند بأنَّ الزيادة المشتملة على فوائد لا تُردُّ؛ وتلك الزيادة تشتمل على تقوية الإسناد ومطابقةِ الجواب للسؤال، وهو مردود بأنَّ المقام ليس مقام التقوية والمطابقة للفعلية، كما عرفت [2]

ويثري هذا التأويل مبينا أن الزيادة التي تحمل فائدة يجب الأخذ بها في إشارة على السعة في التأويل لا ضرورية

النتائج والتوصيات:

ونستطيع أن ندون بعد هذه الرحلة البحثية بعضًا من ملحوظاتنا واستنتاجاتنا للفكر التأويلي البلاغي وهي:

1- يحتاج هذا الحس إلى دراسة مكثفة ذات رؤية تملك ملكة الأسس المعرفية المتوجة بالنفس البلاغي المرن لتعزز فكرة أن التأويل فكر صاحب الدرس البلاغي بغزارة وعمق.

2- الرد على من اتهم هذا الشروح بالجمود الفكري وعدم الفائدة بشكل عملي حيث إن المنطق الوارد بها يكفي لدحض هذه الفكرة دون الغلو بالمنطق والتأويل الفلسفي على حساب الجمال والذوق البلاغي الذي صاحب.

3- أحس التأويل البلاغي دقيق وعميق ولا أدل من ذلك في تأويلهم للزمن حيث أن أنهم تناولوا الزمن بطريقة جديدة بعيدا عن جمود النحو واللغة وتميزوا عن النحاة ببعض من التأويل الأدبي المستند على عقلية ومنطقية.

4- أن المحدد لوجهة التأويل للزمن متعدد وقد تعدد الآراء وتتفاوت كما رأينا في تأويل العصام في قول الشاعر "ليبك يزيد" ويجدر بالمتلقي البحث عن كوامنها؛ لأنها لا تقل أهمية عن زمنية الفعل الذي قد ينحرف إلى اتجاهات تخالف النظام اللغوي لمقاصد بلاغية ذات أهمية.

(1) العصام ، الأطول على شرح تلخيص المفتاح، ج1: 437.
(2) المرجع نفسه، ج1: 438.

5- إن الأزمنة قد تتداخل فقد يحتوي زمن على جزء من زمن حدث سبقه وربما يتبعه في الترتيب، وقد يكون هذا التداخل جزئيا أو كليا "، والفعل الواصف للحال كما في قولنا: "زيد يصلي"؛ لذا تستوجب معالجة ترتيب متوالية الأحداث المتداخلة والأخذ بالاعتبار لسمات الزمن والسياق لفهم آلية توالي وتوالد الأحداث وبلاغة التقييد فيها عبر التأويل الدقيق الشامل للفكر المنطقي المتشبع بأعماق اللغة

6- إن هذه الأمثلة شأنها وضع الفكر التأويلي البلاغي في مصاف التأويل الفكري الذي تتباهى به الأمم الأخرى

لنوكد على أن الدراسة بأن الفكر البلاغي فكر تأويلي بامتياز وتتبعي لسياقات النصية وفق نظامها اللغوي وما ينتج عنه من معانٍ متعددة لعقارب الزمن أحيانا، سواء كان الزمن متقدما أم متأخرا أم مصفرا، مع الأخذ بالاعتبار ما يحتويه السياق من أدوات وضمائم وقرائن حالية كتصنيف المتكلم ممن لا يُكذب أو متكلم يكذب ليصب ذلك كله في صنع معنى بديع دقيق، وأن هناك مساحات من الزمن متداخلة مع بعضها رغم اختلاف توقيتها لوجود مساحات سياقية متوالية في الأحداث تتطلب نظما زمنيا متداخلا.

المراجع والمصادر:

1- الاسفرائيني، عصام الدين إبراهيم بن محمد، الأطول على تلخيص المفتاح، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، ط: 1، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2001.

2- التفتازاني، سعد الدين بن مسعود بن عمر، المطول شرح تلخيص المفتاح، صححه وعلق عليه: أحمد عزو عناية، ط: 1، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث، 1425هـ.

3- أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط:5، مصر، مكتبة وهبة، 1421هـ، 2001م.

4- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط:1، لبنان، لبنان، دار الكتب العلمية، 1413هـ .

5- ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط/ 1، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية.

6- الدسوقي، محمد عرفة، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، حاشية الدسوقي على مختصر السعد، ط: 1، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، 1423هـ 2002م

7- ابن هشام، عبدالله بن يوسف، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، بيروت – صيدا، المكتبة العصرية، 1415هـ - 1994م، 186.

8- الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط: 3، بيروت، دار الفكر، 1405هـ، 1975م.

9- الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس التراجم، ط8، بيروت-لبنان، دار العلم للملايين، 1989م.

10- الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القران، ط: 1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ،1376 هـ - 1957م.

11- القزويني، محمد بن عبد الرحمن، شرح وتعليق: محمد السعدي فرهود، عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، الإيضاح في علوم البلاغة، ط: 6، مصر-بيروت، دار الكتاب، 1425هـ،2004م.

12- القزويني، محمد بن عبد الرحمن، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، ط:1، دار الفكر العربي، 1904هـ-.

13- السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ط:1، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية،1423هـ-2002م.

14- السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد، تحقيق: نعيم زرزور، مفتاح العلوم، ط: 2، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية ،1407 -1978م.

15- السامرائي، محمد صالح، معاني النحو، ط: 1، عمّان-الأردن، دار الفكر،1420هـ2000م.

16- الشمسان، أبو أوس، تقديم محمد فهمي حجازي، ط: 1، الجملة الشرطية عند النحاة العرب، الرياض السعودية، مطابع الأوفست، 1401هـ.

17- المغربي، أحمد بن يعقوب، مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، ط: 1، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية،1423هـ2002.

18- الملاخ، امحمد، الزمن في اللغة العربية بياته التركيبية والدلالية، مجلة الخطاب دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث في اللغة والأدب وتحليل الخطاب منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري الجزائر، العدد: 19، 2015م.

19- الملاخ، امحمد، الزمن في الخطاب مقاربة تداولية معرفية، ط: 1، الرباط-المغرب، الدار العربية للعلوم ناشرون،2009م.

20- مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها عربي- عربي، ط:2، بيروت- لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، 1989هـ 1996م.

21- الهاشمي، أحمد، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط:1، بيروت- لبنان، المكتبة العصرية، 1999م.